الفصل الثالث

الدراســـات الاســـتراتيجية
تقييم وتقويم

الدكتور

بسـام الزرقـا

باحث استراتيجي، حاصل على الإجازة العليا في التفسير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، ودبلوم الدراسات السياسية، المعهد الدبلوماسي، جامعة الإسكندرية، وبكالوريس الطب والجراحة، جامعة الإسكندرية

الدراســـات الاســـتراتيجية

تقييم وتقويم

الدكتور/ بسام الزرقا(*)

أهمية الدراسات الاستراتيجية وخطرها :

الدراسات الاستراتيجية التي تُعْنى بالكليات الحيوية، سواء في مجال السياسة أو الإدارة، أو غيرها من المجالات التي يروج بها ذلك المصطلح (استراتيجية) بالمعنى المجازي، (إذ إن أصل الكلمة إنما يشير للحرب ككل)، ومثل هذه الدراسات ترجع فائدتها إلى أنها تحُلِّق بقارئها لِيَنْظُر من عَلِيٍّ؛ فيسمو عن تِيه التفاصيل، ولا يضل في حواري المتفرقات؛ بما يحدد له من خطوط كلية ومسالك رئيسة هي مثل خريطة لموضوع الدراسة.

هذه هي قيمة الدراسات الاستراتيجية، وهذا في الوقت نفسه مكمن الخطورة فيها؛ إذ إنها تشكل وعي الإنسان بقضية ما، وعلى ضوء هذا الوعي (الكامل أو الزائف) يتعامل مع المفردات، وتنتظم في فكره صورة الأحداث، كل ذلك يتم بحيث ينسجم مع الصورة الكلية الموسومة في الذهن سلفاً.

ويعظم الخطر إذا كان ذلك الفرد منوطاً به مسؤولية، أو يدير عملاً، أو تتبعه جموع.

الحكم على الدراسات الاستراتيجية :

الصناعات المادية منها الجيد ومنها الرديء، منها الأصلي ومنها المزيف، هذا التباين أمر مشاهد، والمنتوجات الفكرية والعلمية هي في الواقع أشد تبايناً.

تقويم مثل هذا التباين يحتاج إلى مقاييس، وأسس حاكمة، ومعايير؛ نفرق بها بين الغث والسمين، والسليم والمزيف.

بعض الناس يستبشر بعنوان الدراسة، فهو بالعناوين يختار وينتقي، لكن ما يمنع أن يُكتب على غطاء إناء السُّم: ترياق!

بعض الناس ينظر لمصدر الدراسة التي خرجت عنه، لكن التقليد المحض لا يُلْجَأ إليه إلا عند العجز أو الاضطرار، ويكون في الفروع لا في الأصول، هكذا علمنا الإسلام.

حتى لو أنزلنا أنفسنا منزلة العاجز المضطر فسوف تبرز لنا مشكلة كبيرة؛ إذ إن جلَّ الدراسات الاستراتيجية

(*) باحث استراتيجي، حاصل على الإجازة العليا في التفسير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، ودبلوم الدراسات السياسية، المعهد الدبلوماسي، جامعة الإسكندرية، وبكالوريس الطب والجراحة، جامعة الإسكندرية.

ذات العيار الثقيل هي صناعة لعدوِّنا، حتىٰ تلك الصادرة عن مسلمين؛ نجد بعضها عالة علىٰ مصادر هؤلاء الأعداء.

بعض الناس يرىٰ أن المحك إنما هو ذات البحث بغض النظر عن عنوانه أو مصدره، وهذه وجهة حسنة لكنها تعود بنا إلىٰ نقطة البداية.

كيف نحكم علىٰ عين الدراسة بقياس ومعيار من ذاته وليس خارجاً عنه؟

عودتنا لنقطة البداية تدفعنا لإعادة المحاولة، لكن هذه المرة بالغوص (في) لا بالتجول (حول).

تحليل مكونات البحث:

ماذا نعني بقولنا البحث أو الدراسة؟

بالتحليل نجد أن ما سبق هو نتاج تفاعل منهج، وطريقة معالجة مع مادة خام هي خليط من المعلومات المستمدة من خليط آخر من البيانات، هذا المنهج أو طريقة المعالجة تحدد من البداية ما يتم اختياره من المادة الخام، ثم بعد ذلك يتم معالجتها بطريقة خاصة، ثم ينظم كل ذلك وفق قواعد خاصة به في صورة كلية قد ترقىٰ إلىٰ شكل (النموذج)، أو تسمو إلىٰ درجة (النظرية) المتكاملة، أو هي في أقل التقديرات تدعي أنها حقائق كلية ترفع الالتباس، وتُيِّسر الفَهْم والاستيعاب.

إذن البحث أو الدراسة هو عبارة عن مادة خام، ومنهج معالجة، ونتائج هي نتاج تفاعل الأول مع الثاني، هذه الثلاثية هي عين البحث أو الدراسة.

كثير من القراء لا يسقط في شَرَك العنوان الباهر، وقلة لا ترضىٰ بربقة التقليد، لكن جلهم لا يرىٰ من البحث إلا ثمرته، ولربما تأمل مادته الخام، لكن المفتش في منهج المعالجة وقواعدها، ذلك المستتر في الظاهر المستبد في الحقيقة ـ مثل ذلك الباحث هو وحده الجدير بمحاولة التقييم أو التقويم.

منهج المعالجة يبدل الثمار:

ولأهمية ذلك العنصر وخطره (طريقة المعالجة)؛ نستطرد حتىٰ يبدو أوضح من خلال مَثَل مضحك، ومثال إعلامي حقيقي.

أما الأول: فقد فاخر صيني هندي، فقال الصيني: لقد كان أجدادنا القمة في التقدم، فقد اكتشفوا التليفون؛ بدليل وجود أسلاك تليفون في مقابرهم، فقال له الهندي: لقد كان أجدادنا أكثر تقدماً؛ فقد اكتشفوا اللاسلكي بدليل عدم وجود أسلاك تليفون في مقابرهم!

لقد استخدم الأول مادة خام كاذبة لتنتج نتيجة كاذبة، أما الثاني فقد استخدم مادة خام حقيقية لتنتج نتيجة هي أشد كذباً.

أما المثال الإعلامي؛ فهو كيفية المعالجة لهذه الصورة المسجلة بالكاميرا الصادقة:

جندي إسرائيل مدجج بالسلاح يطارد طفل فلسطيني ويحصر الطفل فإذا به يلتقط حجراً يقذف به الجندي الذي يفاجأ فيفر هارباً من الطفل الذي يلاحقه.

هذه المادة الإعلامية الخام يعالجها العربي من خلال التعليق؛ ليظهر للجميع مدىٰ جبن اليهودي وشجاعة الطفل المسلم.

والمادة نفسها دون إضافة أو بتر تعرض بمعالجة أخرىٰ في(الميديا) العالمية؛ لتظهر إلىٰ أي مدىٰ رحمة وشفقة جيش الدفاع الإسرائيلي؛ أن الجندي قادر بضغطة صغيرة أن ينهي حياة ذلك المعتدي الصغير، لكنه يفضل الفرار ليحافظ علىٰ حياة مشروع الإرهابي القادم، إنها قمة الإنسانية تتجسد في ذلك اليهودي!!!

هذه حقيقة ما قد حدث وليست مثلاً توضيحياً مخترعاً.

المادة الخام واحدة، لكن معالجة تجعلها طيبة، وأخرىٰ تجعلها رجس من عمل الشيطان، فمن أين وجد الفارق بين الزبيب والخمر، قال ـ تعالىٰ ـ : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [**النحل** : ٦٧].

أي القطارات تختار؟

إذا تكلمنا عن الموضوع ونتاج معالجة المنهج للخامات بوصفها عنصراً حاسماً لتقييم وتقويم الدراسات الاستراتيجية، بل في الحقيقة لتقييم أي دراسة في مجال العلوم الإنسانية.

يبقى سؤال: هل تكفي طريقة المعالجة كمحدد اختيار، أو اختبار، بحث بعينه؟

نعيد السؤال بصيغة تحمل في طياتها الإجابة:

هل تركب القطار لجودته أم لموافقة غايتك غايته؟

إن موضوع الغاية (الهدف الأسمىٰ) من وراء الدراسة موضوع مهم للغاية، وسوف نفرده بشيء من البسط لأهميته القصوىٰ.

مهما فعلنا نظل بشراً:

مهما كانت درجة الالتزام بهذه العناصر السالفة الذكر، ومهما كانت محاولة الانضباط والإجادة فيها سيبقىٰ هناك دوماً عنصر يستعصي علىٰ الضبط، ألا وهو بشرية الباحث والدارس، تلك البشرية التي تفرض عليه رغم أنفه ميولاً هي محصلة ما يعتقد وما ينتقد علىٰ ضوء خبراته السابقة، بل وخبرة عصره، ومكانته.

نقرر هذه الحقيقة بسؤال: هل لو التزم مجموعة من الباحثين بمادة خام واحدة، وأجبروا علىٰ أسلوب

معالجة محدد سلفاً، هل تخرج دراسة الألماني النازي، والروسي الشيوعي، والصيني الشيوعي، والملحد الأمريكي، والفابي الإنجليزي، والوجودي الفرنسي متطابقة؟

إن الميول الفرديَّة، وخبرة الأمة التي ينتمي إليها الباحث أو الدارس هي الخلفية التي ترسم عليها نتائج المعالجة المنهجية للمادة العلمية الخام.

أما الغاية؛ فهي مثل الروح التي تحل على هذه اللوحة فتبدو لنا نابضة حيَّة سائرة نحو وجهة.

الغاية، المنهج، الخبرة:

إنها محكّات ثلاثة تحكم عملية البحث والدراسة، هي ذاتها معيار التقويم أو التقييم، هي ذاتها معيار الاختيار والانتقاد.

حين تريد أن تبني تختار الثلاثية المتوافقة معك لتبني، وحين تواجه تختار ثلاثية الخصم لتعريه فتضرب، أو تخلط بين الثلاث؛ فيختلط عليك أمرك فتغرق.

الصـــراع أبـدي

وجهتان ومواجهة شرسة:

كما أسلفنا: سوق الدراسات الاستراتيجية ـ للأسف الشديد نتيجة تقاعسنا ـ يهيمن عليها أعداء ديننا، أما تلك التي تصدر عن مسلمين يظنون أنفسهم إسلاميين؛ فهي تنطلق من منطلقات القوم نفسها نحو عين غايتهم، وبطرق معالجتهم نفسها، ويحق لأمثال مارجاليوث أن يقتبس ساخراً: (هذه بضاعتنا ردت إلينا).

وعلى الجانب الآخر: جل خطاب الإسلاميين؛ إما يغلب عليه الأسلوب العاطفي الذي يثير الحماسة ويدفع للعمل وتحمل المشاق. ونعم الأمر هذا لو كان بعد توضيح الطريق، ورسم الخريطة، وتجلية التفاصيل للسبيل الذي يجب أن تتحمل الأمة مشاقه، وإما نجد الخطاب والدراسات تجنح لأسلوب آخر، إنه (اليجبية): يجب على أمة الإسلام أن تفعل كذا وكذا، ويجب على قادتهم أن يتوحدوا، ويجب على الشعوب المسلمة أن تصمد صمود الأبطال أمام دعاوى التقريب، بل يجب على عدوهم أن يرتدع، وأن يمتنع فوراً عن عدوانه.. إلخ!

ويظن هؤلاء أنهم بذلك قد نصحوا للأمة التي لا تستجيب، وأن الأمر كما يقول الشاعر:

قد أســـمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنـــادي

ولو أن ناراً نفخت بها أضاءت ولكـن أنت تنفـــخ في رمـــادِ

في الوقت نفسه نجد أن الذي يهتم بتحليل الواقع، ورصد ظواهره، والأخذ بالمنهج العلمي في التوصيف والتفسير والتحليل بل والتوقع، تراه يربط بين العلل والمعلولات، ويتحسس مراكز القوة ومواطن الضعف، ويرسم على ضوء ذلك الخطط التفصيلية المرحلة، ثم يوظف في سبيل إنجازها كل ما يملك من فنون وإمكانات، بل يصل به المكر أن يوظف إمكاناتنا نحن في سبيل الوصول إلى أهدافه، إن الذي يفعل ذلك ـ للأسف ـ هو عدوُّنا.

إنها مواجهة العلم والفن والتخطيط والقدرات المحشودة؛ في مقابل (اليجبية)، و (العاطفية)، و(العشوائية)، والقدرات المهدرة.

فماذا نتوقع أن يكون الحصاد؟! إنه واقعنا الذي نعيش، وماذا ننتظر إذا خالفنا أمر ربنا فغفلنا عن عدوِّنا، وعما في أيدينا! ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً** ﴾ [النساء: ١٠٢].

الإســـــلام منهج حيـــاة

سرُّ قوتنا جعلناه طلسماً نفتخر به!

الغرب والشرق يعادي الإسلام، ويعلم أنه سر قوة هذه الأمة، يعلم عنه الكثير ـ لا كما يظن الحمقى أنهم يحاربون المسلمين؛ لأنهم لم يعرفوا الإسلام ـ يعلمون عن الإسلام شموله التام، وتكامله كمنهج حياة، من أجل ذلك الشمول والتكامل يحاربونه.

تراهم يحاربونه ليل نهار: ﴿**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٧]، يسمونه بغير اسمه (تطرف أو إرهاب)، أو تفلت من ألسنتهم ألفاظ مثل (إنها حرب صليبية)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [آل عمران: ١١٨].

إنه الإسلام الذي نفخر به ونكاد نحصره ـ كما يريد عدونا بالضبط ـ في مجال الضمير الذي لا يستيقظ إلا في وقت الصلاة بالمسجد، أو عند البيت العتيق، أو في المدينة المنورة. أو يحصره هؤلاء ـ الذين يراهم البعض ملتزمين أو متزمتين (بحسب موقعه يخرج وصفهم) ـ في مجال المعرفة بأحكام نتمثل صلاحها للزمان والمكان تمثلاً بالأذهان، أما الواقع فهو خارج نطاق النظر فضلاً عن العمل.

إن الرسول ﷺ لم يرسله الله بالكتاب من أجل ذلك، لم يرسله إلينا لنقف عند حد التجويد والتغني، بل إن هذه الوظيفة يتبعها وظائف من أهمها التزكية: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وهذا الأمر لم يكن للسابقين فقط بل لنا نحن أيضاً، بل ولمن سيأتي من بعدنا: ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة: ٣ – ٤].

والفلاح والنجاح متعلق بهذه التزكية: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ١ – ١٠].

هي التزكية والتربية لا يمكن أن تتم في بيئة معاكسة، بل لا بد من إزالة الفتنة حتى يكون الدين لله، لا بد أن يحكم الكتاب حركة الحياة، ويسوس الواقع كي يفوز أتباعه بالدارين بعد الابتلاء: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ**

مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

الكفاية في التعامل الواقعي تزداد بالفقه في الدين:

معنى قولنا: (إن الإسلام منهج حياة)؛ أن الوحي (الدين) ينظم ويحكم الحياة (الواقع) لصالح البشر في الدارين، ونعني بالبشر: الكافر والمؤمن، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولكي يتم ذلك لا بد من تمكن في فقه الدين؛ إذ إنه الأصل الحاكم، ولا بد من تمكن في فهم الواقع حتى يظهر لنا حكم الشرع، وليس المراد بحكم الشرع هو مجرد إطلاق أحكام مثل: الحِلّ والحُرْمَة، أو الصحة والفساد والبطلان؛ فالحوزة العلمية جزء من الإسلام، ولكن ليست هي الإسلام.

الإسلام الذي ارتضاه لنا المولى أوسع من ذلك بكثير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

والإسلام مثلما جاء لينظم العبادات من صلاة ونسك وما شابه؛ فإنه أيضاً جاء لينظم الحياة من أول صرخة حتى آخر نفس.

إن توصيف الواقع مهم للوصول إلى الحكم الشرعي، صف لي واقع الشمس أوضح لك ما يجب عليك القيام به من صلاة، وما يحرم وما يندب.

إن توصيف الواقع يبرز لنا حكماً، بزوغ الحكم يجلي لنا عملاً.

هنا موضع الزلل؛ خصوصاً إذا اتسعت الفجوة بين الواقع الموجود والواقع الذي يطالب به الشرع.

بعض الناس إذا وجد الفجوة واسعة بين ما يستسيغه الشرع وحال الواقع يبحث عن مغارة لينجو فيها، فهل كانت هذه طريقة الرسل والأنبياء والشهداء أو طريقة الضعفاء؟ ولا لوم عليك إن عرفت قدرك؛ لكن لا تثبط من يأخذ بالعزيمة!

وبعضهم أراد أن يستنفر إخوانه للمسير على درب الرسل والأنبياء والشهداء والسلف الصالحين، ولكن على طريقة يجب ويجب و يجب؛ دون أن يتبين لهم طريق الرسل والأنبياء والسلف من الصالحين وخطتهم، فلعل الله يعصمهم من سكون الخور بعد النَصَب، أو صدام الحماقة بعد اليأس!

وبعضهم انطلق إلى الواقع ليغيره، ولكن على طريقة عدوِّه الذي يراه يتحكم بالأخذ بالأسباب دون ضوابط أخلاقية؛ فيريد مغالبته بأن يجاريه، وهكذا تظهر طريقة (محمد بن مكيافيلي) بدلاً من طريقة محمد بن عبد الله ﷺ، والتقصي يكون للسيرة الماسونية أو الشيوعية بدلاً من السيرة المحمدية!

فهم الواقع لا يعني الإذعان له:

ماذا يجب علينا إن اتسعت الشقة بين الوضع الواقعي، والصواب الشرعي؟ بعض الناس يرىٰ أنه لا بد من سد الفجوة، لكن الواقع راسخ، فيلجأ لحرف الدين محركاً إياه نحو الواقع بدعوىٰ أن الدين يسر، وأنه إذا وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله، وغير ذلك من الحق الذي يوضع في غير موضعه.

أو يكون أكثر وضوحاً وصراحة؛ فيطلق علىٰ هذه العملية أسماء، مثل (فقه المهجر) أو (الضرورات العملية الحركية) أو (واقعية الإسلام) أو (مرونة الدين)، والمحصلة الحقيقية لكل ذلك أن يجعل الواقع هو الحاكم للدين لا العكس، وهنا يظهر الفارق جليّاً بين هؤلاء وأصحاب المذهب (اليجبي)؛ فهؤلاء الذين يتوقفون عند (يجب)، ويحفظون لنا الدين جزاهم الله خيراً، ولربما جاء من بعدهم من يكمل المسيرة بالعمل علىٰ الوصول إلىٰ لهذا الواجب، أما أصحاب الصنف الآخر فبهم تنحرف المسيرة.

كيف كان سلفنا من الصحابة يفهمون الواقع؟

بالطبع لن نجيب عن هذا السؤال؛ فهو خارج عن مجال بحثنا، لكن حسبنا مجرد إشارة عابرة عن حال القوم، ورصدهم للظواهر من حولهم، وكيفية ربطهم النتائج بالمقدمات في مجال مثل السياسة والاجتماع، تراهم يُعملون السنن الكونية والشرعية في مجال الإنسانيات.

تأمل قول امرأة من الصحابة عندما ترصد لنا يوم بُعاث وأثره الاستراتيجي لمسيرة الدعوة الإسلامية في الدين، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقدمَ رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرِّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[1].

هذا الحدث بدأ وانتهىٰ في الجاهلية والسيدة عائشة لم تكتفي برواية التاريخ؛ إنما تربط بين الماضي والحاضر لذلك الحدث الذي تم قبل أن تعي الحياة من حولها، ثم هي تنظم الكل بعين ثاقبة.

ثم تأمل توصيف عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ لواقع عدوِّهم من الروم، والأثر الاجتماعي لمثل هذا الواقع وربطه بالسنن، قال المستورد القرشي عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: «سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه سلم يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس. فقال له عمرو: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم. قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند الفتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٣٤٩٣.

(١) أخرجه مسلم، رقم ٥١٥٨.

بل تأمر طريقة القرآن نفسه ـ في معالجة أحداث الواقع ـ ببيان أثر السنن الشرعية والكونية، وعلاقة الأسباب والمتغيرات في النتائج، تأمل تناول القرآن لحادثة (بدر) وواقعة أُحُد، بل تأمل تناوله لحدث عالمي بعيد عنهم في وقت شدة ومعاناة، وانظر إلى فواتح سورة الروم.

تأمل ذلك وما يصاحبه من استجاشته للعواطف، وشحذ للهمم، وتربية عقدية على الولاء والبراء والتوكل والاستعانة، والطريق الواضح المرسوم بين كل ذلك بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ كي تسير الأمة على الجادة غير ملتفتة لنداء المثبطين، وفحيح المدلسين، وغطيط النائمين.

تأمل ثم تأمل يتجلى لك كم نحن مقصرون في فهم إسلامنا وواقعنا!

نسأل الله المغفرة والإعانة.

الأهلية المزدوجة وحق الاجتهاد:

الأمر يسيرٌ في وضوحه: لكل واقع حكم، ولكل حكم متطلبات لينفذ حكم الكتاب، ولا يستطيع قيادة مثل هذا الأمر إلا أصحاب البصائر بالشرع والسنن والوقائع، وأصحاب الأيدي والعزم، أو من أسماهم القرآن: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فإن تعذر الاجتماع في شخص العالم؛ فليجبر العلماء النقص بأهل الاختصاص من الخبراء بعلوم الواقع (العلوم الإنسانية).

من هنا يستطيع أهل العمل والبذل المسير؛ فقد أصلحت البوصلة، ورتقت الخريطة، والحاسوب بيد خبيرة.

الشرع ثابت والاجتهاد لتطبيقه يضيق ويتسع:

الحكم الشرعي هو في مآله أمر بالفعل أو الكف أو التخيير، ويُتوصَّل إليه إما بالنص المفصل المباشر كما هو الغالب في أمور العبادات، وإما من خلال نصوص أكثر عمومية، كما نراه في كثير من أمور المعاملات، وإما من خلال قواعد كلية وأطر عقدية تضبط الاجتهاد، كما يظهر في مضمار السياسة الشرعية.

عمر لن يخالف أبا بكر في وقت صلاة أو مقدار زكاة، رضي الله عن الصحابة أجمعين.

لكن التاريخ حفظ لنا الكثير والكثير من تباينهما في مجال السياسة الشرعية، وأسلوب الإدارة العامة، بل في استراتيجيات إدارة الصراع مع القوى العالمية آنذاك، (لنا في ذلك بحث صغير).

وعلى الرغم من هذا التباين جُعلت سنَّة الرجلَيْن من الشرع، هكذا أمرنا المصطفى ﷺ، عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله: إن هذه لموعظة مودّع؛ فماذا تعهد إلينا؟ قال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها

بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرىٰ اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشيّاً، فإنما المؤمن كالجمل الأنِف حيثما قيد انقاد»[1].

وعن حذيفة قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فقال: إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا باللذَيْن من بعدي. وأشار إلىٰ أبي بكر وعمر»[2].

فهم الواقع ليس تتبع مفرداته:

ليس المراد بفهم الواقع الإحاطة بجميع مفردات الأحداث والتفاصيل الدقيقة؛ فإن ذلك غير متاح ولا مفيد، بل هو ضار لغير المتخصصين؛ فهو يشوش أفكار متخذي القرار من العلماء وأعوانهم من الخبراء، وهو يلهي شباب الصحوة عن الأولويات وعن واجب الوقت.

فترىٰ بعضهم جُل اهتمامهم التنقل بين إذاعات أعداء الأمة، أو الفضائيات الهابطة هرباً من الإعلام المحلي المعتوه، علىٰ الرغم من أن هذه الثلاثة تخلط السُّم بالعسل، والمصبُّ واحد.

إنما المفيد لهم عرض الأحداث المتوالية بصحبة القواعد الميسرة لفهم وتحليل الحدث، ثم نظم الكل من خلال بيان السنن (شرعية وكونية)، والواجب الشرعي بحد الاستطاعة، هكذا يتم استثارة الصحوة نحو العمل الفعّال المنضبط.

وهذه هي مسؤولية الإعلاميين التي يجب عليهم القيام بها بحسب المتاح؛ بداية من النشرة البدائية بخط اليد إلىٰ القناة الفضائية، مروراً بميكرفون المسجد والجامعة، ولا نغفل الصحيفة والمجلة، ولا الإنترنت والتقارير الاستراتيجية.

وفق الله من يريد العمل، ووقاه شر المثبطين.

شريعة ثابتة في اتساع، وواقع متغير بثوابت:

بعض الناس لا يستوعب كيف تستطيع الشريعة (الدين) استيعاب الوقائع المتجددة التي لا تتناهىٰ ما دامت هناك حياة، إن طبيعة الدين الثبات وإلا صار هوىٰ، وطبيعة الحياة التغير وإلا أصابها الجمود والموات.

هذان نوعان:

الأول: نوع يستتر بمثل هذه الدعاوىٰ لإزاحة الدين عن الحياة، وهذا محل المناقشة معه أصل العقيدة.

والنوع الثاني: جهَّال راجت عندهم شبهة الصنف الأول.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، رقم ٤٣.

(٢) أخرجه الترمذي، رقم ٣٧٣٥.

فنقول له: يا أخي! ألا ترىٰ إلىٰ النقطة الصغيرة تستوعب كل رسمة لفنان مبدع أو تخطيط لمعماري بارع، تتوالىٰ بانتظام فتصير خطاً، وتتواتر علىٰ استحياء فتصير ظلاً، وتتبدل انعكاسات الضوء عليها فتصير لوناً.

ألا ترىٰ إلىٰ الحاسوب كيف يتسع لكل هذا الكم من المعلومات والعمليات الحسابية المعقدة من خلال عاملين فقط هما (الصفر، والواحد)، نقول له ألا تعي هذا؟ فسيقول: بلىٰ.

نقول له: الدين ـ دين الإسلام الذي أوحىٰ به القادر بلا حد ـ أقدر علىٰ استيعاب كل واقع من خلال قواعد كلية وتفصيلات جزئية.

ثانياً: إن ذلك الواقع الذي يبدو دائم التغير والتبدل ـ خصوصاً تلك الأحداث حال تسارعها أو عند تصارعها ـ هو عند التحقيق يجري كما يجري الكون من حولنا وفق قواعد كلية وسنن؛ منها الكوني ومنها الشرعي.

إن الواقع هو نتاج مقدمات علىٰ وفق قانون؛ عَلِمَه من علمه، وجهله من جهله، ﴿**وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾ [**الإسراء**: ٧٧]، ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ [**الأحزاب**: ٦٢]، ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [**فاطر**: ٤٣]، ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ [**الفتح**: ٢٣].

إذن ما هو السبيل لفهم الواقع ولإدراك السنن؟!

العلـــوم الإنســـانيـة

فهم الواقع.. مزانق و مزالق:

لكي يستوعب الذهن البشري شيئاً لا بد له من مدخل يدخل إليه من خلاله، ولا بد من إطار يحصر ذلك المستوعب من الضياع.

فكيف يتم ذلك لفهم الواقع نعني واقع الإنسان؟ أيكون ذلك من خلال ملاحظة وتفسير أثر اجتماع البشر، أم من خلال الدوافع المأججة للأفعال، وفي هذه الحالة: أنعتبر الدوافع العقدية أم المادية، أم الأجدىٰ أن ننظر للواقع من خلال محاولات البشر لفرض إرادتهم بعضهم علىٰ بعض، أو من خلال تحليل استجابة الفرد للنوازع البشرية والطباع النفسية، أم من خلال حركة المجموع كالقطيع تحت إيقاع طبول الدعاية، أم الأصوب أن نبحث عن أثر الغنىٰ والفقر وأسبابه، أم البحث عن الطرق الفعالة لتوظيف الطاقات والإمكانات؟

أي باختصار: أيَّ علم نختار كأساس لفهم الواقع: الاجتماع، أم علم النفس، أم السياسة، أم الاقتصاد، أم الإدارة، أم الإعلام، أم غير ذلك، أم كل ذلك؟

وتزداد المشكلة تعقيداً؛ أيكون ذلك من خلال خبراء الشرق والغرب، أم نقتصر علىٰ المسلمين منهم فقط، أم نجمع بين كل هذه العلوم والفنون وكل هؤلاء الخبراء؟ هل ذلك متاح وكيف؟ إنها معضلة حقيقية.

حل هذه المعضلة يكون على محورين:

الأول: سهلٌ يسيرٌ، نصوغه علىٰ هيئة مثال واقعي، فنقول: قلة من البشر تخصصت في علم الطب، إنهم الأطباء، ولكننا نجد البسطاء من الناس يذهبون في الغالب لطبيب التخصص المناسب، هذه يذهبون بها لطبيبة النساء، وهذا للأطفال، وذاك للعيون، وهذه لجرّاح العظام.

إننا نريد من قادتنا تلك الخلفية اليسيرة للعلوم الإنسانية؛ حتىٰ يستعينوا بالخبير المناسب في الوقت المناسب.

المحور الثاني: وهي في الحقيقية؛ المعضلة الحقيقية؛ لأنها تتعلق بهذه العلوم، وذاك الخبير نفسه، وهكذا نعود للمعيار الثلاثي الحاكم: الغاية، المنهج، الخبرة.

اجتماع العلماء والخبراء

الكتاب ومن ورائه الحديد:

كما أسلفنا نحتاج إلى تكاتف علماء الإسلام مع أصحاب الخبرات الإنسانية الواقعية، مثل هذا التساند لو تم تحت مظلة الشرع فسيكون له - بإذن الله - بالغ الأثر في فاعلية مسيرة أمة الإسلام وقوتها بلا أدنى شك، ولو تجاوزنا معضلة كيفية بناء ذلك العالم وتربيته، بحيث يملك القدرة على استيعاب كليات الواقع وعلومه جنباً إلى جنب، مع الكفاية الشرعية والقيادية المؤهلة لسياسة الأمة من خلال قرار رشيد، وتوجيهات شرعية فاعلة، لو جاوزنا ذلك لأنه خارج عن محل بحثنا؛ فإنه لازم علينا أن نتعرض للطرف الآخر المعاون (الخبراء).

كيف يمكن إيجاد مثل ذلك الخبير الذي يطوِّع خبرته وعلمه لخدمة أمة الإسلام؛ من خلال إمدادها وإمداد علمائها بما يلزمهم من علوم وخبرات وفنون تعينهم على القيام بوظائفهم، وتؤهل الأمة لتحصيل كل قوة؛ لينفذ أمر الكتاب وينصلح الميزان؟!

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [**الحديد** : ٢٥].

قد يسأل سائل: ما المشكلة؟ على الخبراء أن ييسروا ويلخصوا حقائق المعارف والعلوم، كل في تخصصه، وهكذا تجتمع للعلماء زبدة المعارف والعلوم المُحققة، والخبرات الإنسانية من كل نوع وفي كل فرع.

ونحن بدورنا نعيد السؤال إلى مُحاورِنا: ما المقصود بحقائق العلم؟ وهل العلم عند الطرفين كمصطلح يشير لمسمى واحد ومضمون واحد.

بصيغة أخرى: هل المقياس الذي يفصل بين الحقيقة والوهم، واليقين والتخرص، والثابت والباطل، عند الفريقين متفق عليه؟

كيف نصل للحقائق؟ دروب منهجية:

ما هو الطريق المؤدي للحقائق، وما طبيعته، وما مصدره؟

هل الطريق إلى العلم (منهج المعرفة) (الحجيات) يكون بالذوق، أو الوجد، أو التأمل العقلي الذاتي، أو التجربة والاختبار والاستقراء، أو عن المخلوق الذي حلت فيه الألوهية، أو الوحي؟

البوذية انتهجت تعليمات الرجل الذي صار إلهاً؛ ومن ثم كانت الوثنية.

الصوفية انتهجت الوجد والذوق؛ ومن ثم كانت الشطحات.

أما التأمل العقلي فهو سبيل الفلاسفة؛ ومن ثم كانت الأهواء دخاناً خانقاً، وسديماً يعمي ولا يبني.

المنهج الاستنباطي والاستقرائي: تعارض أم تعاضض؟

إن ما يشغلنا في الحقيقة منهجان لتحصيل العلم المنهج الإسلامي للمعرفة؛ لأنه منهج علمائنا، وعليه لا على غيره يأسس أمرنا، وإن كنا لن نعرض له الآن.

المنهج الثاني: هو المنهج الغربي؛ لأنه المنهج الذي ساد في الدراسات المعاصرة، بل إنه المنهج الذي تتلمذ عليه خبراؤنا.

فإن كنا نفخر بأن مؤسس علم الاجتماع مسلم هو ابن خلدون، وهو من العلوم الإنسانية، وأن علم الجبر هو اختراع خالص لنا، وما زال عندهم باسمنا؛ فإن راية العلوم الإنسانية والمادية قد انتقلت إلى الغرب بانحطاط المسلمين عن دينهم.

المنهج العلمي الغربي.. الجذور والمآل:

تبدأ القصة من ذلك الوقت الذي سيطر فيه رجال الدين باسم الدين على شعوب أوروبا، لقد ساد المنهج الاستنباطي، ومصدره الكتاب المقدس الذي ادعوا أنه على اختلافه وحياً، الأصول الدينية التي يجب اعتقادها كمسلمات إيمانية تعارض البديهيات العقلية والفطرية.

حاصل جمع الواحد مع مثليه هو عين الواحد! وخطأ الجد يتوارثه أحفاد الأحفاد! واجتماع النقيضين في الجسد الواحد ممكن، وفي مذهب امتزاجهما!

والخالق قادر على كل شيء إلا أن يغفر ويسامح، فجريمة الأكل لا كفارة لها إلا بجريمة قتل يعاقب فيها الإله نفسه، وثوبي وثوبك المتسخ يطهر بتلطيخ ثوب الطاهر بالدماء.. إلخ!

وكان من الطبيعي أن يحارب رجال الدين أي نشاط لإعمال العقل؛ ولو في مجال خارج نطاق الدين كالفلك مثلاً؛ لأن التعوّد على التفكر والتدبر وغيره من الأنشطة العقلية قد تدفع الإنسان للتحرر من هذه الخزعبلات، وقد يهدد ظلمة هذه الخرافات.

قارن ذلك وبين تعاليم الإسلام الأولى: عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

فخرجت أحكام الإعدام على كل من تسوّل له نفسه إعمال عقله؛ ليبحث عن الحقيقة خارج نطاق الاحتكار بدعوى الهرطقة.

ولم يقتصر الأمر على منهج المعرفة والعلم، بل تعداه بالطبع ليصبغ الحياة كلها، فماذا نتصور أن يحدث

(١) رواه مسلم، رقم ٤٣٥٨.

عندما يثور خلاف ديني، سواء بين شعوب مختلفة أو داخل الأمة الواحدة؟ لقد سطر لنا التاريخ بالدماء أثر الحديد والنار لصراع أوروبا، وما زالت آثار ذلك تحت الرماد حتى الآن (في أيرلندا مثلاً).

لقد تمخضت هذه الخبرات المأساوية لشعوب أوروبا عن نتائج ثورية.

إنها العلمانية خلاصة الخبرة الأوروبية:

لقد فتشت الشعوب عن سبب المأساة وركنها الركين؛ فأشارت كل الأصابع لشيء واحد: إنه الدين، وجبروت رجال الدين.

وللأسف الشديد؛ لقد ضلت كل محاولات إصلاح الدين، وضاعت عليهم فرصة النجاة باعتناق الإسلام، والسبب الظاهر هو خبرة تاريخية أخرى: إنها الحروب الصليبية، لكنهم اكتفوا من المسلمين بالمنهج العلمي الذي تعلموه في الأندلس للتعامل مع العلوم المادية، إنه المنهج التجريبي، لكنهم عمموه على كل شيء ثم نسبوه لأنفسهم.

الدين أصبح هو الداء؛ فما العلاج؟ إنه استئصال الدين من الحياة ومن الواقع، إلغاء رسالته كمنهج يقود الإنسان، ولم يترك له من مجال إلا في دور العبادة الضيقة كسبيل للتنفيس النفسي.

وهل يتحمل أحد دين يخالف الفطرة ويأجج المذابح ويحجب الحقيقة، ضاع الدين وبضياعه ضاعت معه الآخرة كغاية لهذه المجتمعات، إنها الحياة الدنيا ومباهجها، عزها فخرها، ولا شيء آخر خلفها، ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٧٠]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [**يونس**: ٧ – ٨]، ﴿**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**﴾ [**إبراهيم**: ٣].

مات الملك يحيا الملك!

لقد خط نعي الدين والآخرة معاً على ظهر شهادة ميلاد الحياة الجديدة، وانقلب كل شيء: الصورة المثالية القديمة المتمثلة في تقديس النص، ومن ثم كل دعي بأنه مفتاح الوحي؛ انقلبت للسخرية في الأنبياء أنفسهم، احتقار الحياة لحد الرهبنة، واعتبار الزواج شر لا بد منه للضعفاء؛ تحول إلى عبودية الشهوات، وتوحيد الزيجات تحول إلى تعدد العاشقين والعاشقات.

تبدل الغاية تبدلت معه قيم المجتمعات، ومع غياب المطلق (الدين) ساد النسبي (الديمقراطية) كمحدد للحلال والحرام، وحتى شكل الدولة ووظيفتها؛ تبدل لينسجم مع الغاية الجديدة وطبيعة المجتمع، إنها الدولة القومية.

لقد تم استبدال عبودية رجال الدين بعبودية الذات والشهوات والهوىٰ، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

مع رفض مثل هذا الدين كمصدر للحقائق كان لا بد من بديل للمنهج الاستنباطي؛ لأن الاستنباط (الاستخراج) لا بد له من مصدر (نبع) صاف خال من شوائب الأباطيل والخرافات؛ فأين يوجد ذلك النبع: أفي الدين السالف الذكر، أم في الفلسفة التي يضرب بعضها بعضاً؟

غاب المطلق (الإله) فليس ثمة حقيقة إلا النسبي، ولا سبيل للوصول إليها إلا من خلال قدرات الإنسان وأفق تصوراته، ومن ثم كان الإفراط في الموضوعية بديلاً عن الإيمان بالغيب.

الشعار الجديد الذي ساد في الحياة بدلاً من قانون الإيمان، إنه أنا الإنسان سيد الكون، وليس ثمة وجود إلا فيما يندرج تحت نطاق حسّي واختباري.

أما ما وراء ذلك؛ فالإله الجديد لا يقر أن هناك شيئاً أكبر من أفق تصوراته.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

الضعيف يجد نفسه صدى القوى:

العلوم المادية بطبعها تكاد لا تتأثر بالقيم البتة، فالتجربة المعملية التي يجريها البوذي والهندوسي واليهودي والنصراني؛ لا تختلف في نتائجها عن تلك التي يجريها المؤمن.

أما في مجال العلوم الإنسانية فالأمر جد مختلف.

ومع تبوئ الغرب مقعد القيادة العالمية كنتيجة طبيعية لخذلان المسلمين دينهم، صار يمسك السيف بيد وفي الأخرىٰ الذهب، ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد! بل إن ذلك العز والمجد والزخرف دفع بعضهم ليقبل عن طواعية غزو قلبه وعقله، وهو يمنيهم إن سلكوا سبيله أن يمن عليهم من عزه ومجده. وكما قال ابن خلدون: (المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب).

فالحمد لله الذي لم يجعل مجدهم تاماً سالماً من النقص؛ حتىٰ لا نصبح معهم أمة واحدة.

﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ – ٣٥].

والحمد لله الذي كتب أن تظل أبداً أمة تدعو للحق حتىٰ قيام الساعة: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

والحمد لله الذي جعل هذه الأمة من المسلمين حتى قيام الساعة، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1].

وباستثناء هذه الكرة التي تقوم بها الطائفة المنصورة؛ فإن عدونا تخلل كل أرضنا، وها هو يريد أن يفرض علينا أيديولوجيته، وطريقته كمنهج وحيد للحياة العلمانية وأبنائها من السفاح: الحرية (الإباحية والشذوذ)، الديمقراطية (الحاكمية للبشر)، القومية (الولاء المعكوس)، والموضوعية (إنكار الغيب)، وحقوق الإنسان (الإله)، وحرية الفكر (بشرط أن تحل الفاء مكان الكاف، والكاف مكان الفاء).. إلخ.

بل يتبجح كتَّابهم (مثل فوكوياما) بأنه على المسلمين أن يقبلوا ذلك طواعية وإلا فرض عليهم فرضاً وقهراً، بل عليهم تغيير الخطاب الديني ليدعوا إلى ذلك الدين الجديد، وألا يحاولوا تبديل هذه الطريقة المثلى، والحملات الآن هي على أشدها عند آخر الحصون (المرأة، والأسرة، والتعليم).

لقد أصبحت كل العلوم الإنسانية بلا استثناء خادماً مطيعاً للغاية الغربية، والمنهج المعرفي الغربي، ومرسخة للخبرة التاريخية الغربية.

بل لم يسلم التعليم الديني نفسه في ذلك في غالب الأحوال.

يغضبون من الفرع ويدعون للأصل!!

العجب أن أي مسلم يعرض عليه ما قال د. طه حسين وزير المعارف المصري موضحاً قيمة الكتب السماوية بالنسبة لإفادة العلم؛ فيقول ما حصيلته: (للتوارة أن تحدثنا عن إبراهيم، وللقرآن أن يحدثنا عن قصة بنائه مع ابنه إسماعيل للكعبة، لكن كل ذلك لا يصلح لإثبات أن هناك وجوداً لذلك الرجل الذي يسمى إبراهيم)!!

أي مسلم يعرض عليه مثل هذا القول لا بد أن يصيح مستنكراً أو منكراً أن يصدر مثل هذا الكلام عن مدع للإسلام.

لكن العجب العجاب أن تجد ذلك المسلم يشتغل بعلم من العلوم الإنسانية كالسياسة أو الاقتصاد أو علم النفس أو الاجتماع أو الإعلام أو التربية أو الإدارة، فتراه إن أنكر ذلك القول يسير في حياته العلمية كلها على الأصل الذي خرج منه ذلك الفرع؛ أي الوحي لا قيمة له في مضمار العلم، ولا مكان له في المساحة التي يحتلها ذلك العلم من حياة الإنسان.

تراه يترفع أن يورد أحد تلامذته شيئاً في القرآن أو السنة أو سيرة الصدر الأول في بحثه أو دراسته ولو على سبيل التبرك، تجد المرأة منهم والرجل يحافظ على الفروض، ويحرص ألا يأكل حراماً، ويتلو القرآن في

(١) رواه مسلم، رقم ٣٥٤٤.

رمضان، أما إذا وجد آية أو حديثاً يقترب من مملكته انتفض انتفاض الموحِّد إذا عاين شركاً!

أما أن يورد هو أو ذلك التلميذ نصاً لفولتير، أو رسو، أو هوبر، أو فرويد، أو دوركايم، أو منتسكيو، أو هانزمورجانثو، أو أيزوقراط، أو مكيافيللي، أو فيشته، أو مازيني.. أو أي (خواجه)؛ فهذا شيء طبيعي، وهذه هي الموضوعية، وهذا هو العلم!

ومع تكرار هذه العملية نجد أن الطالب يدمن (الصنف)، فيعيد الكَرّة مع طلبته.

لا للدروشة، لا للعلمانية:

وقد يقول قائل: أتريد أن نفرض مادة التفسير مثلاً على الباحث في درجة الدكتوراه في علوم الاقتصاد أو السياسة أو الإدارة.

نقول: بالطبع لا، فمثل ذلك الباحث في الوضع الطبيعي في دول الإسلام لا بد أنه قد درس ما يلزمه من كل علوم الشريعة، مع ما يلزمه في العلوم المادية والإنسانية في الفترة الابتدائية والإعدادية والثانوية.

إنما الذي ننكر تلك الحساسية المفرطة من رجال العلوم الإنسانية ضد القرآن والسنة.

ونحن نسأل بدورنا عالم السياسة: أترىٰ أن قول الحق ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿**قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [**النمل**: ٣٤] يفيد العلم، وأنها حقيقة علمية سياسية؛ أن من كان يطلب الملك دون قيم سامية؛ أن مثل ذلك الحاكم إذا تمكن في مكان لم يكن تحت سلطانه؛ فإنه يُصَفِّي الملأ الذي كان يسيطر لصالح طبقة جديدة موالية له، أم أنها مجرد آية يُحَسّن بها القارئ صَوْتَه، فتقول: الله، الله؟ وهل تقبل استخدام غيرها من الآيات والأحاديث في بحث علمي، أو نصوص (الخواجات) فقط هي التي تصلح؟

ونسأل علماء النفس والتربية: هل ترىٰ أن الخلاف بين أصحاب المذهب القائل بأن الهوية سابقة على الوجود، والقائلين بالعكس؛ هل ترىٰ أن مثل هذا الخلاف يمكن أن يضبط بقول النبي ﷺ: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام؛ إذا فقهوا»[1]، مع قوله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء!»[2].

هل تصلح مثل هذه النصوص عند مناقشة أثر البيئة، وأثر أصل الخلقة على سلوك الإنسان، أو ماذا؟!

ونسأل عالم الاقتصاد: هل ترىٰ التقوىٰ من عوامل قوة الاقتصاد؛ مثلما ترىٰ أثر متغير ما كالادخار مثلاً؛

---

(١) رواه البخاري، رقم ٣٢٣١، ومسلم، رقم ٤٧٧٤، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري، رقم ١٢٧٠.

لأن الحق يقول: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [**الأعراف**: ٩٦]؟

وهل يمكن إقامة اقتصاد على غير الفائدة الربوية ـ لو تصورنا جدلاً قيام دولة إسلامية قوية ـ، أو أن تحريم الربا يؤدي إلى انهيار الاقتصاد في كل الظروف والأحوال، أو الموضوعية العلمية تقتضي إقصاء نص تحريم الربا عن الحياة الاقتصادية؟

ونسأل عالم النفس: هل الإعراض عن الإيمان والإلحاد من أسباب شقاء النفس؟ هل ترى قول الحق: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ [**طه**: ١٢٤] حقيقة علمية؟

نسأل كل هؤلاء: هل يفيد القرآن والسنة علماً، أو لا يفيد العلم إلا ما توصل إليه الإنسان بالاختبار، أما ما أوصله إلينا الله؛ فهو خاضع لتجربتنا كي نعتبره ثم نقول: صواب أو خطأ؟

هذا هو السؤال؛ فهل من إجابة واضحة؟

السد يرتفع والنسج لا يلتئم:

استمرار هذه العملية: تعالي الخبراء بعلمهم، وتطرفهم لصالح المنهج العلمي الغربي، وزهد شباب الصحوة وقادتهم في العلوم الإنسانية، وعدم اعتبارها سبباً من الأسباب الفاعلة، مع غياب قنوات للتواصل والتناصح بين الطرفين؛ يجعل الأمة تخسر في كثير من معاركها معارك كان في يدها أسباب النصر فيها أو على الأقل تقليل الخسائر.

خبراؤنا من المسلمين في أبراج عاجية يشكون أن أحداً لا يستفيد من علمهم، والصحوة في ساحة الوغى تواجه عدوها بقمة الحماسة والعزم، وفي الوقت نفسه بقمة البدائية والجهل والافتقار إلى الخبرة، تبحث عن سلاحها وهو تحت قدمها، غافلة عن أمتعتها، بل لا ترى من أين ينقض عليها عدوها، نعم نحتاج إلى مزيد من التقوى، لكننا نحتاج أيضاً إلى حسن استثمار الأسباب.

تظن بحق أنه يكفيها دينها لحسم معركتها، لكن أي دين هذا؟ إنه الإسلام الذي يجعل الأخذ بكل سبيل للقوة فرضاً دينياً يأمر به القرآن: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٦٠].

وقد قال علماؤنا: الاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد، وترك الأسباب قدح في الشرع.

نريد من خبرائنا التواضع، والصبر، والقدرة على النقد الذاتي؛ حتى تستفيد الأمة كلها من علمهم، وحتى نجد لغة مشتركة للتواصل مع علمائنا ومع شباب الصحوة. وبدلاً من النقد السلبي لما لا يعجبكم في

العمل الإسلامي عليكم بالنصح؛ فهو دين الإسلام، قَال رَسُول اللَّه ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: لِلَّه، وكِتَابِه، ورَسُولِه، وأَئِمَّة الْمُسْلِمِينَ، وعَامَّتِهِمْ»[1]، والنصح يستلزم المبادرة الإيجابية لا سكون الانتظار، نقول لهم نحن في حاجة إليكم، والخلاف لا يفسد للود قضية.

نريد من قادة الصحوة وصفوفها أن يتنبهوا إلى سيرة الصدر الأول؛ كيف كانت تزكيتهم لأنفسهم، وفي الوقت نفسه كيف كان اهتمامهم بالأسباب والتخطيط السليم، وباستجلاء أثر السنن على الواقع، وأن يمدوا أيديهم لخبرائنا، ونقول لهم ما قاله عباد بن عباد الخواص الشامي أبو عتبة: (أما بعد، اعقلوا والعقل نعمة... وناصحوا الله في أمتكم؛ إذ كنتم حملة الكتاب والسنة؛ فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به، وإن السنة لا تعمل حتى يُعمل بها.... وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [**الجمعة**: ٥]، وقال: ﴿ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ** ﴾ [**البقرة**: ٦٣]، قال: العمل بما فيه، ولا تكتفوا من السنة بانتحالها بالقول دون العمل بها؛ فإن انتحال السنة دون العمل بها كذب بالقول مع إضاعة العمل، ولا تعيبوا البدع تزيناً بعيبها؛ فإن فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم، ولا تعيبوها بغياً على أهلها؛ فإن البغي من فساد أنفسكم، وليس ينبغي للطبيب أن يداوي المرضى بما يبرئهم ويمرضه؛ فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى به على علاج المرضى، فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظراً منكم لأنفسكم، ونصيحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم، وأن يستطعم بعضكم بعضاً النصيحة، وأن يحظى عندكم من بذلها لكم، وقبلها منكم، وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي.... الداخل فيما لا يعلم بغير علم آثم، ومن نظر لله نظر الله له، عليكم بالقرآن فأتمُّوا به وأُمُّوا به، وعليكم بطلب أثر الماضين فيه)[2].

ولكي يتم اجتماع العلماء والخبراء؛ فعلينا بذل مزيد من الجهد الجماعي لتمحيص موضوعات مهمة مثل المنهج الإسلامي للمعرفة، وقضية أسلمة العلوم الإنسانية، ورؤية سيرة الصدر الأول بمنظار الصدر الأول الشامل، وغيرها من الموضوعات الأساسية.

لكن حسبنا في هذه الدراسة أن نخرج بالمعايير التي تحكم تقييم الدراسات الاستراتيجية، وأن نبدأ سبل تمهيد التواصل بين العلماء والخبراء، ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ [**آل عمران**: ١٠٣].

وهذا هو الإصدار الاستراتيجي الأول، ورحلة ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة.

---

(١) رواه مسلم، رقم ٨٢، وأبو داود، رقم ٤٢٩٣، واللفظ له.

(٢) مقدمة سنن الدارمي.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١] .

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»(١) .

(١) رواه مسلم، رقم ٥١٤٤ .